الباب الأول

مصادر الحقيقة عند الغزالى

الفصل الأول : الحال العلمية والسياسية فى عصر الغزالى .

الفصل الثانى : حياة الغزالى .

الفصل الثالث : ملاحظات على كتب الغزالى .

الفصل الرابع : الغزالى كما فهمه الباحثون .

الفصل الخامس : الغزالى كما فهمته .

الفصل الأول

الحال العلمية والسياسية
فى عصر الغزالى *

كان العلماء فى ذلك العهد جادين فى طلب العلم وتحصيله، فكان هنالك حركة علمية دائبة، غير أنهم ما كانوا يطلبون العلم للعلم بل كانوا يتخذون منه وسيلة للزلفى إلى الرؤساء؛ لذلك كانوا يعكفون على العلم الذى يجدون نفوس الرؤساء مائلة إليه وطروبة به ، فكان هدفهم الذى يسعون إليه الجاه ، والشهرة وذيوع الصيت إلا من عصم الله .

وهذا ما جعل العلماء يلقون بأنفسهم فى أحضان الرؤساء ويتشبثون بأهدابهم [1].

وفى الوقت ذاته كان الرؤساء فى حاجة إلى مؤازرة العلماء لأن الدين كان هو الوسيلة الوحيدة فى ذلكم الوقت لإقامةصرح ملك ودك آخر ؛ إذ خلط الزعماء السياسيون الدين بالسياسة ليصبغوا أغراضهم بصبغة دينية حتى يوهموا العامة أنهم بعيدون عن المطامع الشخصية ، وقد عرف الرؤساء بذلك كيف يسيطرون على نفوس العامة لأن الدين له تأثير كبير على النفوس فهى إلى دعائه أشد استجابة من أى دعاء آخر .

ولذلك أنشأ السلاجقة — حكام تلك الفترة التى نؤرخها — المدارس فى « بغداد » و « نيسابور » تعلم مبادئ أهل السنة — لأنهم كانوا سنيين — وتنشر دعوتهم بكل ما أوتيت من قوة .

وقد كان « نظام الملك » وزيرُ آل سلجوق صاحبَ الفضل الأكبر على هذه المدارس، أنفق عليها عن سعة ، حتى بلغت نفقاتها فى العام ٦٠٠,٠٠٠ دينار [2] .

كانت هذه الأموال الطائلة تنفق على الأساتذة والطلاب جميعاً . فراجت

---

* فى القرن الخامس الهجرى تقريباً .

(١) وقد أرخ الغزالى لذلك فى كتابه « فاتحة العلوم » ص ٤٧ .

(٢) الأخلاق للدكتور زكى مبارك ص ١٦ .

سوق العلم ، وأحب العلماء نظام الملك ، وتعشقوا مجلسه واتخذوا منه ندوة علمية .

ويحكى عن نظام الملك هذا أيضاً أنه كان يحب الصوفية . حدثوا[١] أنه كان له شيخ فقير . كان إذا دخل عليه يقوم له ويجلسه فى مكانه. ويجلس بين يديه ، ولما سئل فى ذلك قال : « إنه يذكرنى بعيوب نفسى » .

ولما وشى به إلى « ملك شاه » وقيل[٢] . إن الأموال التى ينفقها « نظام الملك » على المدارس تقيم جيشاً يركز رايته فى سور القسطنطينية أجاب « نظام الملك » « ملك شاه » : « إنى أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل . إذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامها صفوفاً بين يدى ربها . فأرساوا دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تنبتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون] .

ومما قوى الصلة بين العلماء والحكام أيضاً ، أنه قد لاح لهما فى الأفق عدو واحد مشترك ، أقض مضجعهم ، وأقلق راحتهم وهددهم فى دينهم ودولتهم ، وأعنى به الفلاسفة والمعتزلة ، قالت[٣] الهلال : [أنشأ السلاجقة المدارس الإسلامية ، والمجالس الجدلية فى الشرق ، والفاطميون — مثل ذلك — فى الغرب ، هؤلاء يسعون فى إثبات تعاليم الشيعة ، وأولئك يلتمسون تأييد أهل السنة ، وكلاهما فى خوف من أهل الفلسفة والتعطيل] .

فلا عجب أن يتآمر الحكام ورجال الدين على الفلاسفة والمعتزلة هؤلاء يطاردونهم بالسيف ، وأولئك يطاردونهم بالطعن والتحقير[٤] ولم يصرف واحد من علماء الإسلام عنايته إلى أن يطاردهم بسلاح الفكر الحر والنقد الجرىء[٥].

وقد نتج من مطاردة الحكام ورجال الدين لأرباب الفكر أن الشعب اتخذ من الكفر والزندقة سلاحاً يشهره فى وجه من شاء من العلماء والباحثين، فراجت سوق الفتنة ، وخشى العلماء على أنفسهم . فراحوا يكتمون آراءهم فى صدورهم ،

---

(١) الأخلاق للدكتور زكى مبارك ص ١٩ .

(٢) الأخلاق للدكتور زكى مبارك ص ١٦ .

(٣) أول العدد ٦ من المجلد ١٥ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) من « المنقذ » للغزالى طبعة دمشق الثانية ص ٨٢ .

ويرقبون — فى خلسة — فترا تغفل فيها عنهم أعين الرقباء ، ليبوحوا بها لتلاميذ يصطفونهم . أو يودعوها كتباً تحت ستار علم آخر .

اقرأ ترجمة أبى المظفر[١] الأبيوردى الذى تفقه على إمام الحرمين . تجد مترجمه يقول[٢] : [وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة] .

مما يدل على أن عقيدة العلماء كانت مثار أخذ ورد .

وروى[٣] « أبو سعيد » السمعانى أحد كتاب التراجم أنه استمع إلى دروس « على بن عبد الله بن أبى جرادة » المتوفى سنة ٥٤٠ هـ . أثناء رحلته الدراسية إلى حلب . فذات مرة رآه أحد الصالحين يخرج من دار هذا الشيخ فسأله عن سبب زيارته . فأخبره بأنه يتلقى عنه علم الحديث . فغضب الرجل الصالح غضباً شديداً . وقال : « ذاك يقرأ عليه علم الحديث ! ! . قلت ولم ؟ ! . هل هو إلا رجل متشيع يرى رأى الحلبيين ؟ . فقال لى : ليته اقتصر على هذا ، بل هو يقول بالنجوم . ويرى رأى الأوائل[٤] » .

ولقد ذكر « جولد زيهر » أمثلة كثيرة من هذا النوع ثم علق قائلا[٥] :

[فإذا كان الحال على هذا النحو فمن السهل أن نفهم كيف أن الكثيرين ممن كانوا يحرصون على حسن السمعة كانوا يسبلون قناعاً على دراساتهم الفلسفية . مظهرين اشتغالهم بها تحت ستار علم آخر من العلوم حسنة السمعة .

وأوضح مثال لهذا وإن لم يكن هو المثال الوحيد « محمد بن على بن الطيب » المتوفى سنة ٣٤٦ هـ . فيذكرون عنه أنه كان إماماً عالماً بعلم كلام الأوائل إلا أنه خشى أهل زمانه فلم يشأ الظهور صراحة بمظهر الفيلسوف ، فأخرج مذهبه فى صورة المذاهب الكلامية ، التى لم تكن مع ذلك حائزة لرضى أهل السنة فى عصره هى الأخرى ، ولكنها كانت على كل حال أقل خطراً من الفلسفة الصريحة ، لأنها على الأقل نمت على تربة إسلامية] .

هذه هى الحال العلمية والسياسية فى عصر الغزالى . وسنرى إلى أى حد أثرت فيه .

---

(١) المتوفى سنة ٥٠٧ هـ .

(٢) الأخلاق للدكتور زكى مبارك ص ٤٤ .

(٣) « التراث اليونانى » ص ٣٤ .

(٤) وكلمة « الأوائل » اصطلاح على الفلاسفة .

(٥) « التراث اليونانى » ص ١٣٤ .